

المحاضرة 2: أسباب ظهور المدارس النحوية

تمهيد:

إن البحث في أسباب ظهور المدارس النحوية ليس بالأمر الهين، فيعد البحث والتنقيب تبين أنه لا يوجد كتاب تناول هذه الفكرة باستيفاء، وكل الذي وجناه بهذا الشأن كان مجرد أفكار متناثرة هنا وهناك، بل إن بعض المراجع يشير إلى أسباب تعتبرها مظهرًا لوجود المدارس النحوية لا سببًا لها، ولعل السبب في ذلك هو الانقسام الذي عرفه الدارسون العرب بشأن وجود مدارس نحوية، فهم بين رافض ومثبت لذلك، حيث نفى فريق وجود ما يسمى بالمدارس النحوية في نحو العربية، والموجود هو تجمعات جغرافية فقط، لا تستحق مصطلح المدرسة، وأثبت فريق آخر وجودها على اختلاف بين آراء أصحابه، فمنهم من قال بوجود مدرسة واحدة في النحو العربيين وهي المدرسة البصرية، ومنهم من قال بوجود اثنتين؛ البصرية والكوفية، ومنهم من قال بوجود ثلاثة، مضيفا البغدادية، وقد حاولنا في هذه المحاضرة الاجتهاد قدر المستطاع لنجمع ما رأيناه في ظهور المدارس النحوية، وفيما يلي تفصيل ذلك:

1- نشأة النحور العربي:

كان نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين حدثًا مهما في تاريخ العربية وفي حياة أهلها، حيث دخل الناس في هذا الدين الجديد أفواجا أفواجا، حتى اتسعت الرقعة الإسلامية، فخلفت اللغة العربية لغة الكثير من الأقوام، كالسريان، واليونان، والأقباط، والبربر،...، وحتى الفارسية، حيث انهارت هذه اللغة بعد الفتح تماما.

لقد قضت العربية حتى على اللغة اللاتينية، كما روى أحد الكتاب المسيحيين، من رجال القرن التاسع الميلادي أن "المسيحيين يتملون بقراءة القصائد وروائع الخيال العربية،

ويدرسون مصنفات علماء الكلام المسلمين، لا بقصد تنفيذها، بل من أجل التمرّن على الأسلوب الصحيح الأنيق في العربية...⁽¹⁾

بعد امتزاج العرب بالعجم شاع اللحن على ألسنة الوافدين إلى الإسلام، فبدأت العربية تقسّد وتتحرف عن فصاحتها، والدولة عربية محضة، والقوم حديثو عهد بجزيرتهم، يتتأقّلون القول المشهور (ليس للاحن حرمة)، مما جعل علماءها، وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلي يسرعون إلى الدفاع عن سلامتها من الأخطاء، خوفاً من أن يؤثر ذلك على القرآن الكريم، فراحوا يضعون قواعد اللغة العربية التي نحفظ اللسان من الزلل، وتحفظ القرآن الكريم من التحريف، وهكذا كان اللحن الذي بلغ مداه في المئة الأولى للهجرة الباعث الأول على تدوين اللغة وجمعها، وعلى استنباط قواعد النحو وتصنيفها، فقد كانت حوادثه المتتابعة نذير الخطر الذي هب على صوته أولو الغيرة على العربية والإسلام.⁽²⁾

لقد قام النحو العربي على أسس منهجية، التزمها النحويون، وساروا على هديها، وعملوا بمقتضاها، عرفت تلكم الأسس بأصول النحو العربي، فوضعوا جملة من الأحكام باستقراء نصوص العربية في فترة من الزمان محددة بحوالي منتصف القرن الثاني الهجري بالنسبة للحاضر، وأواخر القرن الرابع الهجري بالنسبة للبادية، وهذه النصوص هي القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر الجاهلي والإسلامي والأموي، وبعض الشعر العباسي وكلام العرب الفصحاء الذين سلمت لغتهم في تلك الفترة من تأثير الاختلاط بالأمم الأخرى، وعلى هذه النصوص قاس النحاة، ولاحظوا الظواهر التي تجري عليها النصوص في تراكيبها، وحركات أواخر الكلم منها، وأحوال أبنية الكلم فيها، وقرروا هذه الظواهر على صورة قواعد.

(1) - نقلاً عن: عبد العزيز بن عبد الله، اللغة العربية وتحديات العصر، مجلة اللسان العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الرباط، المغرب، عدد 13، 1976، ص 7-8.

(2) - سعيد الأفغاني، في أصول النحو، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، 1994، ص 6-7.

وهؤلاء النحاة هم في الغالب الأعم نحاة البصرة الذين أسسوا علم النحو، وبنوا قواعده، فذاع صيتهم في كل بلاد المسلمين، لأنهم أسبق أهل العراق اشتغالاً بالنحو، ولما برز في الكوفة علماء برعوا في مسائل النحو وقضاياها سعوا إلى أن يبلغوا في النحو مبلغ الكوفيين، وذلك بالتجديد والاختلاف عن سبقهم، خاصة وأن عَ لَمِي المدرستين الأولتين في النحو كانا على خلاف، حيث اشتعلت الشرارة الأولى للخلاف النحوي بين الخليل بن أحمد الفراهيدي (بصري)، وأبي جعفر الرؤاسي (كوفي)، إلا أن ما بينهما كان في حقيقة أمره خلافاً شخصياً لم يأخذ طريقه إلى المنهجية، لكنه انتقل إلى سيبويه والكسائي، فصار على يديهما خلافاً منهجياً راسخاً بين نحاة الإقليمين (البصرة والكوفة).⁽¹⁾

2- ظهور المدارس النحوية:

مما لا شك فيه أن الخلاف بين النحاة الأوائل، وبين نحاة المدرسة الواحدة في بعض الأحيان راجع إلى عدة عوامل منها هو نزعة فردية تكمل جهداً علمياً، ورغبة في وضع الأمور في نصابها كما يعتقد النحوي، ومنها ما هو عصبية لمذهب ما، إما بحكم القناعة بأصول المذهب أو القناعة بوجهة رأيه في مسألة فرعية معينة، أو القناعة بوجهة القائل، ومنها ما هو بتأثير عقدي أو سياسي أحياناً، ومنها إمعان بعض النحاة في الصناعة، مما أدى بهم رد نصوص وتأويل أخرى، والدخول في تقديرات لم يقبلها آخرون، وإمعان آخرين في الواقعية اللغوية، مما حدا بهم إلى قبول كل أو أكثر ما يصل إليهم.

أ- الموقع الجغرافي:

تميزت البصرة نظراً لموقعها الجغرافي المتاخم للحدود بتشدها في السماع والقياس والتعليل، ونحن نعرف البواعث الدينية في نشأة نحو العربية والتي ترجع إلى الحرص الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم أداءً فصيحاً سليماً، وخاصة بعد تقشي اللحن وشيوعه على

(1) - إبراهيم عبود السامرائي، المفيد في المدارس النحوية، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط3، 2007، ص 23.

الأسنة، فكان البصريون بمجاورتهم للعجم متشددين، يتحرون الدقة في النقل والقياس، في حين توسع الكوفيون في ذلك، لأنه اطمأنوا لسلامة اللغة، نظرا لأن الكوفة إقليم داخلي يتوسط العراق، فهو أقل عرضة للاختلاط ومجاورة العجم.

ب- سوق المريد والكناسة:

ساهم سوق المريد بالبصرة، وسوق الكناسة بالكوفة في إقواء لهيب الاختلاف، سوقان يقصدها التجار والشعراء والأدباء والخطباء وأهل اللغة، فيدور بينهم ما يعن لهم من نقاش وجدل واستعراض لمعارفهم اللغوية والنحوية.⁽¹⁾

"ومريد البصرة هذا متسع للإبل ترد فيه للبيع. وكان في الأصل سوقا للإبل، حتى إذا كان عهد الأمويين صار سوقا عامة تتخذ فيه المجالس ويخرج إليها الناس كل يوم، كل إلى فريقه وحلقته وشاعره، وتتعدد فيه الحلقات يتوسطها الشعراء والرجاز ويؤمها الأشراف، وسائر الناس يتناشدون ويتفاخرون ويتهاجون ويتشاورون، وقد وجدوا فيه مستجما لأبدانهم وأرواحهم التي نهكتها الفتوحات، وحنّت إلى سابق عهدها في عكاظ فجددت منه ما سمح به الدين الجديد. بل غضت النظر فتسامحت أحيانا وأحيت ما أemat الإسلام من جاهلية وإحن وثارات وأثارت عداوات. كان يبعثها الناس من تلقاء أنفسهم، أو بتشجيع خفي من بعض خلفاء الأمويين؛ ليشغلوا الناس بعضهم ببعض عن الخلافة وما يأتي الخلفاء من هنوات".⁽²⁾

ج- الأسباب السياسية:

كان للعامل السياسي دور بارز في ظهور المدارس النحوية، بل إنه العامل الأساس في ظهورها، حيث كانت البصرة عثمانية أموية، وكانت الكوفة علوية عباسية، ونحن نعرف

(1)- إبراهيم عبود السامرائي، المفيد في المدارس النحوية، ص 31.

(2)- نقلا عن: سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، بيروت، القاهرة، ط3، 1974، ص 407-

الخلاف بين الدولتين، والذي ورث الكوفيين تجاه البصريين عداً كبيراً، فكانوا يضمرون لهم الكراهية والبغضاء، في زمن قوة دولتهم، يقول أحد الكوفيين⁽¹⁾:

أفخرتم أن قتلتم أعبداً وهزمتهم مرة آل عزل
فإذا شيخ خاضب عثونه ما فعلنا بكم يوم الجمل
جاءنا يهدج في سابغة فذبناه ضحى ذبح رفل
وعفونا فنسيتم عفونا وكفرتم نعمة الله الأجل
وقتلتم بحسين منهم بدلاً من قومكم شر بدل

فبعد سقوط الدولة الأموية خلفتها العباسية التي كان مبدأ ظهورها في الكوفة، وهنا انقلب ذل الكوفيين في عهد بني أمية إلى عز يفاخرون به البصريين الذين أقل نجمهم مع قيام دولة بني العباس.

د - الأسباب المذهبية:

يمكن أن تتلخص الأسباب المذهبية في موقعة الجمل، وهي معركة وقعت في البصرة العام (36هـ)⁽²⁾، حيث نشأ خلاف بين البصرة والكوفة بعد مقتل عثمان، فعرفت البصرة بأنها عثمانية، بعد أن توجهت إليها عائشة ومن معها للمطالبة بالقصاص لعثمان، على ظهر جمل، فسميت ومن معها بأصحاب الجمل، بينما توجه علي إلى الكوفة، وهناك نشبت الحرب بين المدينتين، خلفت حقداً دفيناً أثر على الأهالي في كل مناحي الحياة.

وبسبب أحداث موقعة الجمل رفض علي بن أبي طالب تنفيذ القصاص في قتلة عثمان مع علمه بهم، وذلك لأنهم سيطروا على مقاليد الأمور في المدينة النبوية، وشكلوا فئة قوية

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للنشر والطباعة والتوزيع والإعلان، ط1، 1997، ص 31/12.

(2) ينظر: أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، تح: محب الدين الخطيب، منشورات مكتبة السنة، القاهرة، ط6، 1412هـ، ص 153.

ومسلحة كان من الصعب القضاء عليها، لكن بعض الصحابة رفضوا ذلك وعلى رأسهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام الذين خرجا إلى مكة، والتقيا عائشة التي كانت عائدة من أداء فريضة الحج، واتفقوا على الخروج إلى البصرة لتنفيذ القصاص في القتل⁽¹⁾.

خلاصة:

تعددت المدارس التي عنيت بدراسة نحو العربية، فتميزت كل واحدة منها بمنهجها وطريقتها في الدرس، وكان تميزها غالبا قائما على ما بينها من اختلاف في القياس والتأويل والتعليل، هذا الخلاف الذي اتفقت شرارته الأولى بما بين الشيخين الأولين لنحو البصرة والكوفة، ثم زاد لهيب الشرارة وانتشر بين مريدي المذهبين لأسباب عديدة أبرزها ما بيناه في متن المحاضرة من اختلاف في الرقعة الجغرافية، واختلاف في الثقافة، فضلا عن الأسباب السياسية والمذهبية.

(1) - ينظر: المرجع السابق، ص 150.